سنان أنطون *

# القيامة الآن: أفكار في حضرة الثورة

ما زالت روح البوعزيزي، ذاك الطائر الخرافي الذي أضرم النار في جسده كي يشعل جسد النظام السياسي العربي، تحلّق في سماوات العالم العربي، ومعها أرواح الشهداء الذين سقطوا في تونس ومصر وليبيا. حلّقوا ويحلّقون كي تكون سماء العالم العربي وأرضه، لشعوبه، لا لطغاته. يحلّقون كي نكون، نحن من نحن، أخيراً، بكل ما تحمله الكينونة من معنى. فسلامٌ عليهم وعليهن، يسبق كل كلام.

لم يكتمل "سفر الثورة" بعد، فهناك فصول تُكتب ونحن نكتب، وأُخرى تنتظر. ولكل فصل خصوصياته وسياقه، طبعاً، وما زال في جعبة الثورة كثير، وخصوصاً أنها حالة مستمرة في تونس ومصر. لكن "تونس" ـ وما أدرانا ما تونس ـ في كل مكان. وكتاب الثورة مفتوح على مصراعيه. ومهما تؤل إليه الأمور فإن الثورة أعادت الروح إلى مفردات ومقولات وقيم كانت دُفنت تحت جثة النظام السياسي العربي حتى ظن البعض أنها ماتت، لكنها أزلية وخالدة: الشعب، الحرية، الاستقلال.

فركام الهزائم والكوارث السياسية والاجتماعية والفكرية منذ سنة ١٩٦٧، والذي لا يرمز إلى احتلال ما تبقى من فلسطين فحسب، بل إلى بداية ظهور عوارض الفساد في الأنظمة العربية لما بعد الاستعمار، خطاباً وممارسة أيضاً، غطى على تلك المفردات حتى بدا أنها فقدت صوتها ومعانيها. فإذا كانت أنظمة الدول الوطنية تخلصت من الاستعمار الغربي المباشر وأطاحت بالأنظمة الموالية له، فإن معظمها فشل في إكمال الاستقلال بإنجاز مشاريع تأسيس أنظمة سياسية ذات مؤسسات تحترم المواطنة وتضمن الحقوق والحريات الأساسية للمواطنين، فلم يتحول إلى أنظمة مدنية، وظل الضباط الذين ارتدوا الزي المدني، هم مَن يسيطر عليها في حفلة تنكرية طويلة. وتحولت الأنظمة، إن لم تكن بدأت أساساً كذلك، إلى دول بوليسية، بدرجات متفاوتة من الوحشية؛ دول تحتكر السلطة فيها نخب لم ينتخبها أحد قط (باستثناء مهازل الـ ٩٩٪ ومثيلاتها)، تجمعها عصبيات وروابط الدم أو المنطقة أو القبيلة. وعقدت هذه النخب تحالفات مع طبقات وشبكات رجال الأعمال والشركات المتعددة الجنسيات، فعاثت فساداً ونهباً، وألغت، عملياً، ما كان أُنجز أصلاً، هنا وهناك، من تأميم لثروات الشعوب وحماية حقوقها في التوزيع العادل للثروات. فجرى اعتناق الخصخصة ديناً وديدناً، وخصوصاً بعد انهيار

(*) شاعر وروائي عراقي، وأستاذ مساعد في جامعة نيويورك.

المعسكر الاشتراكي وسيادة خطاب نهاية التاريخ وتعميم الرأسمالية الوحشية المتبرقعة تحت حُجُب العولمة والسوق المفتوحة. كما برز خطاب التوريث كمشروع وممارسة ونجح البعض في أن يرث جمهورية أبيه، وكان الآخرون ينتظرون في الكواليس.

وإذا كان كثير من هذه الأنظمة استخدم، منذ البداية، قضية فلسطين العادلة والصراع مع الإمبريالية والاستعمار الحربائي شماعةً لتعليق جميع المشكلات عليها وتبرير مختلف السياسات التعسفية والمماطلات بحجة إيلاء القضية المركزية الأولوية، فإنها، بممارساتها، وخصوصاً بعد تعميم مشروع السلام الزائف ودخول الأنظمة تباعاً إلى حظيرته يهشّها الراعي الأميركي، أصبحت في نهاية المطاف حليفة الاستعمار والاحتلال الإسرائيليين في فلسطين، كما أصبحت حليفة الاستعمار الأميركي الجديد بوقوفها معه علانية في أثناء حرب الخليج الأولى في سنة ١٩٩١، ثم تسهيلها غزو العراق واحتلاله في سنة ٢٠٠٣. وانتهى الأمر بممالك النفط ومشايخه إلى أن تصبح قواعد للإمبراطورية الأميركية، فكأننا عدنا إلى بدايات القرن العشرين، والفارق هو أن الولايات المتحدة ورثت دور بريطانيا العظمى.

وهكذا وصل النظام السياسي العربي في بدايات العقد الثاني من هذا القرن إلى قمة الإفلاس الأخلاقي والسياسي، وأصبح عارياً في وضع تتحكم فيه في البلاد نخب فاسدة وفاقدة للشرعية، ولاء الأغلبية العظمى فيها هو لمراكز القوى الاقتصادية العالمية ولمصالح خارجية. أضف إلى ذلك تراجع الخدمات، وضعف الدولة ومؤسساتها أمام منطق السوق وقوانينها، وتعاظم الهوة بين الأقلية الفاحشة الغنى وبين سواد الفقراء، وتفاقم الأوضاع المعيشية للأغلبية العظمى. من جانب آخر كان الإسلام السياسي الذي شجعته الولايات المتحدة ودعمت بعض نسخه، مع حليفها النظام السعودي منذ الحرب الباردة في أفغانستان، قد احتكر آفاق المعارضة السياسية وساحاتها ومفردات الخطاب الاحتجاجي وأخذ يمتد شعبياً وثقافياً، وخصوصاً بعد ضرب اليسار العلماني وإضعافه. وجاء الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وما يسمى الحرب على الإرهاب، كي يرسخا ثنائية الإسلام السياسي والدولة البوليسية، كأحد خيارين لا ثالث لهما أمام الشعوب العربية. فتم استخدام فزاعة الدولة الإسلامية وإرهاب القاعدة وشبح الحروب الطائفية لتبرير حكم الدولة البوليسية. وزادت الولايات المتحدة في دعمها للأنظمة البوليسية.

وما كان يدعم هذه المعادلة التبسيطية السخيفة هو الخطاب الاستشراقي العنصري الذي ظل يدّعي أن العرب والمسلمين حالة استثنائية، وأنهم خارج الحداثة أو ما زالوا يتمرغون بما قبلها، لا ينطبق عليهم وعلى مجتمعاتهم ما ينطبق على مجتمعات وحضارات أُخرى من معادلات ومقولات. فالديمقراطية، في الخطاب الاستشراقي، مفهوم غربي المنشأ لا يمكن تجذيره في العالم العربي، ولا مكان للعلمانية في مجتمعات ذات ثقافة وأغلبية إسلامية. وللأسف، فإن كثيراً من المفكرين والمواطنين العرب والمسلمين، أعادوا بوعي أو من دونه، إنتاج مفردات هذا الخطاب الذي كان ترسّخ في أذهانهم وممارساتهم، واستحوذ عليهم فكرياً. فبدلاً من الإصرار على المقاومة لبناء دولة المواطنة المدنية، تخبط كثيرون في مشاريع ذات خطاب إقصائي ومرجعيات غيبية. والمستفيد الأول من هذا الخطاب هو النخب السياسية العربية وحلفاؤها الغربيون.

ولعل أهم إنجازات الثورات هي أنها أفحمت الجميع وبينت بما لا يقبل الشك أن العالم العربي، شأنه شأن غيره، يمكن أن يكون في قلب الحداثة والتاريخ، وأن الشعوب العربية، مثل شعوب العالم أجمع، تحلم هي الأُخرى بقيم

العدالة والحرية والديمقراطية ويمكن لها أن تثور من أجلها سلمياً وتنتصر على أعتى الدكتاتوريات عندما تتوفر الشروط التاريخية واللحظة المواتية، وأنها لن تكتفي بإسقاط رموز النظام، بل ستظل تناضل، كما نرى في تونس ومصر، لإحداث ثورة حقيقية جذرية تهدف إلى تغيير علاقات القوة بين الحاكم والمحكوم، وإلى بناء مؤسسات جديدة واستحداث آليات تضمن تمثيلاً شرعياً للشعب الذي يظل المصدر الأول للشرعية التي يصونها ويضمنها دستور حقيقي عادل.

يقودني هذا إلى مقولة "الشعب" الذي كثيراً ما لهجت باسمه الأنظمة، واستخف به الطغاة فذبحوه وقادوه إلى الحروب والكوارث بحجة الدفاع عنه. لقد رأينا الشعب، بأجمل وأبهى صوره، طيفاً تعددياً لم تُلغَ اختلافاته، وإنما أصبحت مصدر قوة. لقد وجه الشعب في ثورته، وخصوصاً في مصر التي كانت على حافة بركان الطائفية، ضربة قاصمة إلى خطاب الطائفية الذي جرى ترسيخه في المنطقة في العقدين الأخيرين، وخصوصاً بعد احتلال العراق، حتى أصبح المنظار السائد لقراءة تاريخ المنطقة ولكثير من المواطنين الذين أشبعتهم بعض الفضائيات ووسائل إعلام البترول بمفردات الخطاب الطائفي المسمومة. إن تكاتف الشعب أعاد الأمور إلى نصابها، ليس بمعنى إلغاء الاختلاف وإنكار بعض التوترات التي اعتورت العلاقات الاجتماعية، وهي طبيعية، لكن بكشف دور الأنظمة وأجهزتها الأمنية في تغذية الخطاب الطائفي لإضعاف الشعب والسيطرة عليه. ولعل من أجمل المناظر من أرشيف الثورة المصرية وأكثرها تأثيراً هو مشهد الشباب المسيحيين في ساحة التحرير وهم يشكلون سلسلة تحمي المصلين المسلمين الذين كانوا يؤدون صلاتهم. وكانت إقامة قداس مسيحي في ساحة التحرير إشارة رائعة ومثالاً يجب الاحتذاء به في المجتمعات ذات النسيج المتعدد، إلى أن الحيز العام يتسع للجميع، وأن لا مكان في عهد الثورة للتشكيك في انتماء المواطن. لقد كشفت المؤسسات الدينية (الأزهر والكنيسة القبطية) بوقوفها مع النظام ضد الثورة، مرة أُخرى ونرجو أن تكون الأخيرة، تبعات إقحام الدين في السياسة وتوريط مؤسساته فيها وضرورة العمل على إنشاء دولة ومجتمع مدنيَّين، فهذا الأمر يحمي الدين من السياسة قبل أن يحمي السياسة من التطرف ومن خلط الحابل بالنابل. وهناك درس بليغ أيضاً للعلمانيين، وأنا منهم: علينا أن نتحرر من توجسنا من مظاهر التدين وممارساته. لقد كان ميدان التحرير في القاهرة مختبراً رائعاً لتصحيح كثير من الأفكار والتصورات الإشكالية.. فالجميع، باختلاف معتقداتهم وممارساتهم، كانوا يقاتلون دفاعاً عن الثورة في أحلك ساعاتها، وكانوا يقاتلون ويدافعون باسم قيم إنسانية عليا، عابرة للأديان والأيديولوجيات، ويقاتلون كمواطنين بعضهم من أجل بعض.

تغري الثورات دائماً بالتغني بها وبشاعريتها لأنها تجدد الحياة، لكن يجب ألاّ نفرط في تحويلها إلى حدث شاعري، ويجب ألاّ ننسى أنها، وإن كانت تبدو معجزة نبعت من مكان خفي، إلاّ إنها نبعت من صميم الشعب ومن تاريخه ومن حقائق مادية. لقد قيل كثير عن دور الفايس بوك والتويتر، ولا أحد ينكر أن هذه التكنولوجيا وفّرت فضاء جديداً للتواصل والعمل والتنظيم ولجيل جديد كي يبلور آفاقه، لكن الثورات عبر التاريخ كانت دائماً تتويجاً لاستخدام البشر ما تيسر من أدوات بحيازتهم لتغيير أوضاعهم. إن التركيز المفرط على دور التكنولوجيا وأدواتها يغفل دور المواطن (وقد بالغ المحللون والصحافيون في الغرب في الاحتفال بالتكنولوجيا وبالتركيز عليها في استعلاء واضح وعنصرية مقيتة كي يجيّروا ثوراتنا لمصلحتهم ويعيدوا الأصل في كل ما

هو إيجابي إلى ما هو مستورد من خارج الثقافة العربية)، لكن هذا الخطاب يتناسى حقائق أساسية وتاريخاً طويلاً من العمل السياسي الاحتجاجي، ومن إضرابات واعتصامات، ومن حراك سياسي ومعارضة شجاعة كانت كلها تصب حممها في ذلك البركان الهائل الذي كان ينتظر أن يبلغ السيل الزبى. لقد جرى استحضار كثير من الثورات والحركات العالمية كمصدر إلهام لثورتَي تونس ومصر، من الثورة الإيرانية إلى انتفاضات أوروبا الشرقية وسقوط جدار برلين، لكن كثيراً من شباب الثورة المصرية ذكروا في حواراتهم وشهاداتهم الانتفاضة الفلسطينية والتظاهرات التي شاركوا فيها ضد حرب العراق في سنة ٢٠٠٣ كلحظات مفصلية في تشكيل وعيهم السياسي. وعلينا ألاّ ننسى طبعاً أن إخفاق الأيديولوجيات التي كانت سائدة عربياً فيما مضى، في إشعال الثورات لا يعني أبداً أن تاريخاً وتراثاً مجيداً من النضال ضد الاستعمار وضد الاحتلال ومن ثم ضد الطغيان، لم يكونا رافداً أساسياً في الذاكرة الجمعية. وقد شاهدنا وسمعنا واحتفلنا في أثناء الثورة بتلك الأشعار والأغاني والرموز التي تلهب حماسة الثوار والمواطنين.

ستعيد هذه الثورات إلى المواطن حقوقه الأساسية المشروعة في حياة كريمة وحريات مقدسة في ظل دولة القانون والتمثيل السياسي بأطر ديمقراطية، وستطلق عنان المواهب والطاقات البشرية الهائلة التي كانت الدكتاتورية تخنقها، كما ستعيد سيادة الشعب على ثرواته التي بددتها النخب الفاسدة. إذاً، هذه الثورات تنجز الاستقلال الحقيقي والكامل من دون هيمنة وتبعية، وتعد بنهضة على جميع الصعد، وسيكون لهذا المد الثوري شأن آخر عندما يصل إلى بلاد الخليج العربي والجزيرة العربية، وقد بدأت بوادره في البحرين وعُمان. وعلى الرغم من اختلاف الديناميات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بين دول النفط وبين تونس ومصر، وأن طوفان الثورة سيكون له نتائج مغايرة ومتفاوتة من بلد إلى آخر، وأن سقف المطالب ربما يتغير من مكان إلى آخر، فإن التغيير قادم لا محالة. إن أي تغيير جذري في ممالك النفط، وخصوصاً السعودية، سيكون له تأثيرات هائلة في المنطقة بأسرها، لأنه لن يحرر المواطنين فحسب، بل الثروات الهائلة من الهدر أيضاً، ويستثمرها في التنمية الحقيقية في المنطقة. إن القوى الاقتصادية المستفيدة عالمياً من الوضع السائد لن تقف مكتوفة الأيدي وستحاول كبح جماح الثورات، لكن الشعب أثبت أن القدر يستجيب كلما أراد الشعب، والشعوب تريد. فلماذا لا؟ وأزعم أن هذه الثورات هي بداية نهاية عصر هيمنة الإمبراطورية الأميركية على العالم العربي.

على المفكرين والمثقفين هنا القيام بواجبهم في إنتاج خطاب جديد، لا يخطب باسم الشعب، أو يزايد على الثوار من المنابر القديمة بالنبرة ذاتها، وإنما يتعلم من الثورة. نحن بحاجة إلى خطاب يستوعب التغيرات الهائلة ويساهم في تكوين ثقافة ترقى إلى الثورة وتليق بها، وإلى إطار فكري نقدي وفكر سياسي يحميان مكاسب الثورة ويكملان المسيرة، لا من منطلق شعاراتي، وإنما على أساس الحقائق المادية والتاريخية. ولعل من دروس الثورة التي لقّننا إياها شبابها وأعادوا تذكيرنا بها، هو أن لا مستحيل، وأن النضال يجب أن يكون من أجل العدالة الاجتماعية والحرية، وأن النقد الراديكالي ممارسات ضرورية لا يمكن أن تتوقف.

والكلام على الحرية والتحرير يقودنا دائماً إلى فلسطين. لقد هتف الثوار في تونس باسم فلسطين. إن طريق عودة اللاجئين إلى فلسطين وعودة فلسطين إلى فلسطين كان وما زال يمر بالعواصم العربية. وها هي العواصم العربية

تثور وتتحرر، الواحدة بعد الأُخرى، ولن تكون العواصم الحرة منتجعات سياسية لإسرائيل. وكما قال محمود درويش في تونس وعنها:

حافظي على نفسك يا تونس. سنلتقي غداً على أرض أختك: فلسطين. ■


من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

**الرواية الفلسطينية الكاملة للمفاوضات**
**من أوسلو إلى خريطة الطريق**

**أحمد قريع (أبو علاء)**

**١**
**مفاوضات أوسلو**
**١٩٩٣**

٥٣١ صفحة ١٥ دولاراً (تجليد عادي)
٢٠ دولاراً (تجليد فني)

**٢**
**مفاوضات كامب ديفيد**
**(طابا واستوكهولم)**
**٢٠٠٠ – ١٩٩٥**

٥٠٥ صفحات ١٥ دولاراً (تجليد عادي)
٢٠ دولاراً (تجليد فني)